الاشتراكية والاعلام

الدكتور أحمد كامل
مدرس في قسم الصحافة

تطور النظريات الاشتراكية

النظرية الاشتراكية حلبة صراع تدور فيها الاقلام وتصطرع في أرضها فلسفات عديدة نابعة من نهر عظيم يفيض بالافكار الاشتراكية منذ أن بزغت خيوطها المتشابكة عقب انتصار الثورة الفرنسية الكبرى التى كرست تتويج البورجوازية الفرنسية كقوة اجتماعية وسياسية مسيطرة على أدوات الحكم والتى رضيت بالملكية عقب هزيمة نابليون بونابرت كصورة رمزية ترمز الى استقرار النظام ودليل على التصالح بين هذه الطبقة القوية الغنية اقتصاديا وفكريا وبين فلول الاقطاع المتبقية المرغمة على التخلى عن امتيازاتها وسطوتها البائدة • وفي عام ١٨٣٠عندما حاولت ملكية شارل العاشر أن تخرج على الحدود أزاحتها البورجوازية المتمثلة في تيير رجل الصحافة والمحاماة ولافيت رجل المصارف والبنوك ولافاييت قائد الحرس الوطنى الليبرالى المتحرر • واختار الثلاثة الكبار الذين يمثلون الطبقة الجديدة الصاعدة ملكا يتحلى بالصفات البورجوازية وأطلقوا عليه اسم الملك المواطن ليتلقى تاجه من يد الشعب وبمعنى أصح من أيدى أصحاب السلطة الحقيقية فيتلك الفترة التاريخية التى كانت تربة خصبة للافكار الثورية المجردة والمتناثرة حول المبادىء الجمهورية والفلسفة الاشتراكية التى وجدت معارضة صارمة من البورجوازية الحاكمة التى صورت الجمهورية على أنها مثيرة للسجازروالمقاصل والاهارب • ونعتت الاشتراكيين بلفظة المقسمين Egalitaires أى الذين يريدون تقسيم الثروة أقساما متساوية على كافة أفراد المجتمع مما يؤدى الى افقار الجميع • وأول ماظهر لفظ الاشتراكية بمعناها السياسى الحديث الدال على نظام اجتماعى واقتصادى في عالم الصحافة كان في جريدة فرنسية تسمى « الجلوب » أي العالم في سنة ١٨٣٢ بفضل « بيير ليرو » أحد تلامذة مدرسة سان سيمون الفلسفية وأطلق لفظ الاشتراكية للتعبير عن الفلسفة الاجتماعية الاصلاحية التى امن بها أتباع هذه المدرسة المؤمنة بالنظرة الانسانية الى الطبقات المعدمة وبالتالى أصبحت الاشتراكية في نظرهم تعبيرا عن الحركة الهادفة الى تحقيق صورة جديدة للمجتمع كما يتخيلها هؤلاء الفلاسفة دون

امتيازاته الاستغلالية يؤجل حل المشكلة الاجتماعية دون أدنى أمل حقيقى في وضع حد لاوضاع ظالمة تضاعف من الام اطبقة الكادحة وتضللها عن طريق خلاصها ، طريق الكفاح لان تصفية الامتيازات الطبقية لاتتحقق مطلقا بالمشاعر الطيبة والسلوك المثالى والتنازل الارادى انما بطريق الثورة أى باتتصـــار الشعب الحاسم على طبقة الاقلية .

ولم يتفق فلاسفة الاشتراكية في القرن التاسع عشر على شكل معين لتنظيم المجتمع ولا على الدور المخصص للدولة في الميدان الاقتصادى ولا على شكل السلطة التى يجب أن تسود المجتمع المتصور من خلال عقائدهم المختلفة التى تراوحت بين الخيالية المتطرفة في التفاؤل الســاذج وبين الواقعية المسعنة في التشاؤم ولم تــكن في متناول عقولهم أية تجربة اشتراكية فعلية تساعد على تمحيص الافكار المتضاربة بل لم يتفقوا حتى على أسلوب تغيير المجتمعات الرأسمالية وهل يكون سلميا ديموقراطيا أم ثوريا دمويا وهل طريقة الثورة تخضع للنظرية الاشتراكية أم تتوقف على طبائع الشعوب وتراثها التاريخى ومراحل تطورها والقيم السائدة في مجتمعاتها . ولذلك سارعوا الى المشاركة في ثورة ١٨٤٨ والى تحليل أسبابها وتأكيد سمتها الاجتماعية وظنوا أن الثورة القادمة في الطريق والتى يحلمون بقيامها ثورة اشتراكية عالمية سوف تحرر الانسان الاوروبى تحريرا نهائيا ولــــكن نابليون الثالث الذى أعلن قيام الامبراطورية في ديسمبر ١٨٥١ قوض أحلامهم وحطم آمالهم وأقام الدليل على قوة المشاعر القومية المتعطشة الى الحروب والامجاد وبرهن على أن المرحلة الاشتراكية مازلت في بطون الكتب وعلى ألسنة الفلاسفة لان الجيش أصبح دعامة قوية للبورجوازية الحاكمة المتحالفة مع بقايا الاقطاع على ايقاف المــد الديموقراطى والتطور الاجتماعى الذى يهدد استقرار النظام وازدهاره .

وبصورة عامة تبلورت في أوروبا ثلاث تيارات اشتراكية متميزة :

١ ــ الاشتراكية الانتاجية التى تتبنى مشاريع التنمية للثروة القومية واطلاق طاقات رأس المال في المشروعات الاقليمية والعالمية (مثل مشروع شــق قناة السويس) والمناداة بجعل جميع الناس منتجين بشــــرط الاتتدخل الدولة انما يترك الامر للتجار والصناعيين والمثقفين من علماء وفنيين أى أن تحقيق الكفاية الانتاجية في كافة المجالات الاقتصادية والصناعية يؤدي الى الرفاهية التي سوف تظلل جميع أفراد المجتمع . ويتزعم هذه المدرسة الاجتماعية الفيلسوف سان سيمون وتلاميذه . ولم يتعرض الى

موضوع عدالة التوزيع المتكافىء ولم يتعمق فيموضوع التفاوت الطبقى وجوهر الصراع في المجتمع • الا أن تلاميذه أمثال أنفانتان وبازار وأوجست تييرى وأوجست كونت نادوا بتطبيق الطريقة العلمية على الحقائق الاجتماعية وتبنى الاخيرالفلسفة الوضعية وأسس علم الاجتماع الحديث بعد فصله تماما عن الفلسفة • ونقدوا الملكية الخاصة واعتبروا دورها انتقاليا واثارها ضارة بالعدالة لانها قائمة على استغلال الانسان للانسان ومن الناحية الانتاجية تؤدى الى اطار فوضوى للانتاج وتلك الفوضى لاعلاج لها الا بالمشاركة الجماعية أى أن الدولة تصبح المالكة الوحيدة لادوات الانتاج وتقوم بتوزيع عائدها بالتناسبعلى أكثر الناس كفاءة وقدرة وشعارها لكل بحسب قدراته ولكل قدرة بحسب عملها • وكان هذا التيار الاشتراكى الفلسفى أحد المنابع الاساسية التى استلهممنها كارل ماركس ثقافته قبل صياغته لنظرية الاشتراكية العلمية واصداره مع فريدريك انجلز البيان الشيوعى في باريس عام ١٨٤٨

٢ ـ الاشتراكية التعاونية بزعامة (روبرت أوين) في انجلترا و (شارل فوريية) في فرنسا • وكان الفيلسوف الاول رجل صناعة وخياليا انسانيا يثق في أفراد البشرية وقدرتهم على التخلى عن الانانية الفردية ويتصور أن حل المشكلة يتوقف على خلق النموذج الاشتراكى الانسانى الذى سوف يجتذب أصحاب النوايا الطيبة من الاغنياءورجال المال والصناعة• وأعطى المثل بنفسه باقامة مستعمرة اشتراكية على أساس المساواة المطلقة والمشاركة في الجهود والارباع وانتفاء الاسلوب الرأسمالى الاستغلالى• ولكن هذه التجربة الرائدة المغلفة بالمثالية المجافية للواقع الانسانى البشرى تحطمت على صخور المصاعب وفشلت فشلا ذريعا لافتقارها الى منهج علمى قوى •

٣ ـ الاشتراكية العلمية بفضل كارل ماركس الذى صاغ نظريتها الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية بعد استيابه العلمى للفلسفة الجدلية الهيجلية ومذهب الاقتصاد الحر لادم سميث والدراسات الاجتماعية الفلسفية لسان سيمون وتلاميذه ومعايشته للتقلبات السياسية في فرنسا حيثكانت الاشتراكية في مرحلة التبلور والتطلع مع بداية المرحلة الصناعية التى كونت طبقة عمالية واعية قادرة على القيام بدور نضالى في التصدى للملكية لويس فيليب رغم تخفيه تحت شعار الملك المواطن وقدمت الاشتراكة العلمة تفسيرا جديدا للمجتمع قائما على التحليل الدقيق

والتركيب بحيث تخرج الى النور كل العلاقات البينية والتناقضات والتفاعلات والصلات الداخلية مما يكشف جوهر المجتمع وحركته الدائبه واتجاهه في المستقبل ومما أدى الى كشف الصراع الطبقى كمحرك أساسى للتاريخ وأهمية العامل الاقتصادى في البناء الاجتماعى والسياسى والفكرى ..

وتتضمن الايديولوجية الماركسية نظريات المادية الجدلية والمادية التاريخية والاقتصاد السياسى وتحتاج في شرحها ومناقشتها الى مجلدات ضخمه من علماء الفلسفة والاجتماع والاقتصاد .

ومن نافلة القول الحديث عن تفاعلها مع الفكر العربى المعاصر المنفتح على كل الفلسفات يأخذ ويعطى دون أن يفقد سمته العربية الاصلية وبلا تفريط في قيمة الروحية المقدسة ويصوغ اشتراكية العربية المتوائمة مع السياق التاريخى للامة الناهضة الناطقة بالضاد والمحافظة على كيانها الكبير وسط التجمعات العالمية المعاصرة .

الاعلام أداة للفكر الاشتراكي :

أولى أدوات الاعلام السباقة لخدمة الفكر الاشتراكى والقادرة على ايصاله للمثقفين وللجماهيرالعريضة بأساليب متنوعة متناسبة قادرة على الاقناع والتعبئة وحشد التأييد والمساندة والتعاطف ثم التحريك في سبيل اخراج الفكر الى حيز التطبيق هي الصحافة المطبوعة المتداولة والمقروءة من آلاف العقول المتطلعة الى فكر نابض بالحياة قادر على تصوير مجتمع المستقبل وكما قال الدكتور فؤاد مرسى في مقدمة كتابه « حتمية الحل الاشتراكى » متحدثا عن أهمية ايصال الفكر الى جمهرة الناس «ان مهمة الفكر الاشتراكى هى في النهاية تعميق الوعى الاشتراكى بين أوسع الجماهير مع انتزاع الرواسب الفكرية الرجعية . وذلك بهدف تنظيم الجماهير وتعبئتها للبناء الاشتراكى العظيم » ويستشهد المؤلف بكلمة للرئيس جمال عبدالناصر « ان الوعى لابد أن يؤدى دوره بفاعلية أكثر . ولا يتحقق الوعى السياسى بالتلقين ولكن يتحقق الوعى عمقا وخصوبة بالمناقشة الديموقراطية التى يجب أن تنفتح لها كل الابواب بغير حاجز أو حجاب » ثم يؤكد الكاتب دور الكلمة وفاعليتها الخلاقة المبدعة بهذه الفقرة التى صدر بها كتابه « ليس بالخبزوحده يحيا الانسان وانما الكلمة أيضا » وليغدرنا القارىء فيما اقتبسناه من عبارات وفقرات قد تبدو بعيدة عن صلب الموضوع ولكنها في حقيقتها تتصل بجوهره

لانها توضع أهمية عملية توصيل الافكار وغدسها وتعميقها وانضاجها في أعماق الانسان مع مقاومة ما يصطدم لها من رواسب وبقايا وعادات تنتمى الى عفن الماضى وتقف حجر عثرة أمام اشراقة المستقبل • والصحافة بلا شك خير أداة وأطيع وسيلة وأقدر مركبة تمتلك خاصية حمل الافكار والقدرة على ترديدها ليل ونهار مما يجعلها تغوص الى جذور اللاوعى وتحول الاقتناع البسيط الى ايمان عميق •

لذلك نجد أنه من المنطقى أن يتحول الفلاسفة الاشتراكيون الى صحفيين يزاولون بأنفسهم مهنة المتاعب بحماس وانكار للذات في سبيل أن يصل فكرهم الى أعصاب المجتمع وخلاياه فيبعث فيها الدفء والحياة •

وهكذا شمر الفيلسوف سان سيمون عن سواعد ليصدر صحيفة « المنظم L'Organisateur » الغنية بالمقالات الايديولوجية الشارحة لمذهبه وآرائه في التعبير الاجتماعى بالوسائل السلمية • ويبدوواضحا من كتاباته احساسه المرهف والعميق بالمشكلة الاجتماعية ورغبته الجادة في ايجاد طريق للتخلص من التأزم الاجتماعى الحاد دون افتئات على الحرية أو هدم للمعتقدات الدينية أو اراقة لدم الانسان •

أما الفيلسوف « برودون »الذى رفع لواء التبشير بالاشتراكية كأساس لا بديل له للقضاء على التناقض بين الطبقات وازالة الفوارق بين دخول الافراد رغم انتمائهم الى مجتمع واحد وتمتعهم بحقوق سياسية واحدة واعادة توزيع الملكية الخاصة بطريقة أعدل تؤدى الى جعل طبقة الغالبية لها حظها ونصيبها في الملكية مما يؤدى الى الاستقرار الاجتماعى • وقد وجد فرصته السانحة في ثورة فبراير (شاط) ١٨٤٨ فطالبها بعدم الاكتفاء فقط بالمكاسب السياسية عن طريق اعطاء الشعب حق الانتخاب المباشر دون تغيير عميق لجذور المجتمع الظالم ، أكد كل التأكد المطالبة بتغلغل الثورة في أعماق المجتمع الفرنسي لتعيد بناءه من جديد • واصدر صحيفة للعمال أسماها «ممثل الشعب Le Représentant Du Peuple » وتحمل هذا الشعار الاشتراكي المطول •

من هو المنتج ؟	لا شيء
ماذا يجب أن يكون ؟	كل شيء
من هو الرأسمالى ؟	كل شيء
ماذا يجب أن يكون ؟	لا شيء

ومن وجهة نظره الاشتراكية أن القوتين القاضيتين على العدالة الاجتماعية والاخاء الانسان هما : ١ــ الاتجاه نحو تكديس رأس المال مما يؤدى باستمرار

الى زيادة الفوارق في الثروة ٢ ــ النزعة المرتبطة بالثروة مباشرة والموحدة بين القوة السياسية والسيطرة الاقتصادية • وكان من شأنها زيادة السلطة الاستبدادية المطلقة للأقلية الرأسمالية تحت ستار الأنظمة الحرة • وأصبحت الدولة في نظره أداة لتجديد الأغلبية من كل مزاياها لحساب الأقلية وصورة من صور السرقة المشروعة التى تؤدى الى حرمان الفرد بطريقة منتظمة من حقه الطبيعى في الملكية الخاصة بأن تعطى الأغنياء وحدهم السيطرة على التشريع الاجتماعى والائتمان المالى بينما تجرد البورجوازى الصغير من حقه العادل في الملكية •

وعندما اندلعت ثورة الكومون في ١٨ مارس ١٨٧١ عقب انهيار الامبراطورية الثانية في ركام الهزيمة المريرة ومحاولة البرجوازية الفرنسية التصالح مع الجحافل البروسية الغازية واصرار العمال والكادحين على رفع شعار المقاومة الوطنية الى اخر قطرة من الدم الشريف ، اضطرت حكومة الجمهورية الفرنسية الثالثة المؤقتة حينذاك الى الانسحاب الى فرساي تمهيدا للانقضاض على الثورة الاشتراكية الاولى في اوربا التى ناضلت بكل شجاعة وبطولة اسطورية خلال المجزرة الدامية التى اقامها رئيس الجمهورية « تيير » لاخماد صوت الاشتراكية الى الابد• وقاتل العمال البائسون بالسلاح الابيض وسط المقابر دفاعا عن حقهم في الخبز والحرية ورفضا للهزيمة والانهزامية •

وظهر هذا الصراع الطبقى الثوري العنيف على صفحات الصحف الفرنسية ، ادوات الاعلام الرئيسية في تلك الايام ، فنجد ان الصحف المناوئه للثورة فرت هاربة الى ضاحية فرساي بالقرب من الحكومة تدافع عنها وعن سياستها في التصالح والمهادنة وتهاجم الثوار والثورة وتنعتهم بالطيش والتهور والاغراق في الفوضى •

بينما ان الصحف الثورية المناضلة وقفت صفا واحدا تذود عن الثورة الشعبية العارمة والانتفاضة الوطنية المحمومة التى ترفض الاستسلام والهزيمة وتوقيع معاهدة الذل والعار وتؤمن بان تعبئة الشعب الفرنسي قادرة على امتصاص العدوان البروسي وتحقيق الانتصار على الدولة البروسية الغازية • ولكن القوات الحكومية سحقت ثورة الكومون خلال اسبوع اريقت فيه الدماء ليل نهار واطلق عليه المؤرخون الاسبوع الدموي La Semaine Sanglante وانتصرت البورجوازية الفرنسية القوية انتصارا محققا وانتكست الاشتراكية الى مطلع القرن العشرين لتنفجر في الثورة الروسية الاولى عام ١٩٠٥ ضد القيصرية والاوضاع الطبقية الظالمة ولتنتصر انتصارا حاسما في

ثورة اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٧ • وبفضل لينين زعيم حزب البلاشفة الروس تحولت الماركسية على يديه الى فلسفة جماهيرية تتلخص في شعارات مبسطه قادرة على الانغماس في عقول الجنود والفلاحين والعمال ترفع راية السلام بالمطالبة بانهاء الحرب الاستعمارية التى تورطت فيها القيصرية وماجرته من هزائم ومصائب متتاليةواعطاء الارض للفلاحين وسيطرة العمال علىالمصانع اصحاب الحق الاول في عائد الانتاج • لذلك فطن لينين الى خطورة واهمية الاعلام في غرس المفاهيم الماركسية بالقيام بتحويل الشعور الطبقي الذي يمكن ان ينحبس في الصراع الاقتصادي على صورة نشاط نقابي او مهني الى شعور سياسيمتأجج يرتفع الى مستوى الوعى بالصراع وبحركة المستقبل • هذا الوعي السياسي يتطلب جهدا اعلاميا متواصلا وتدريبا مستمرا على النضال لايصال الوعي الى مرتبة الايمان • كذلك ايقن لينين ان هذه المهمة الاعلامية التي تمارس على مستوى الجماهير ، ينبغي ان يعهد بها الى نخبة من الثوريين المحترفين باعتبارها الطليعة الواعية للبروليتاريا القادرة على قيادتها في الطريق الاشتراكي الثوري الصحيح • معنى ذلك ان الحزب الشيوعي في نظر لينين يصبح اداة الاتصال بين النخبة الثورية وبين الجماهير اي يصبح جهازا سياسيا يقوم بعمل اعلامي متواصل يهدف الى النهوض بالتربية السياسية الاشتراكية ويتميز هذا الجهد الاعلامى الشعبى بالقوة والمرونة للربط باستمرار بين الجماهير والحزب من اجل ان تلحق بمستوى الطليعة في الفهم والعمل •

قال تروتسكى « ان البعض يتهمنا بخلق الرأي عند الجماهير وهذا الاتهام غير صحيح • كل ماهنالك اننا نحاول صياغة رأيها » واضاف قائلا « كانت ضآلة الوسائل التى تستعين بها الاثارة البلشفية ملفتة للنظر » كيف اذن بهذا الجهاز الواهن ومع ضآلة توزيع الصحف استطاعت الافكار والشعارات البلشفية ان تفرض نفسها على الشعب ؟ ان سر هذا اللغز بسيط للغاية فالشعاراتالتى تتجاوب معالحاجة الملحة لطبقة معينة في وقت معين تخلق لنفسها آلاف المسالك • ويتميز الوسط الثوري عندما يبلغ حد الغليان بقابليته الشديدة لتوصيل الافكار • كل هذا يؤكد أن المضمون الاشتراكى اعلامى لأنه يعبر عن حقيقة اجتماعية انسانية ولكن الأسلوب بدون أدنى شك دعائى لأنه يهدف الى الاستمالة والاستهواء والتأثير وغرس آراء مسبقة لدى النخبة الثورية أو الحاكمة من أذهان الجماهير والعبرة عند تطبيق النظرية الاشتراكية في المجال الاعلامى القدرة على الامساك بالميزان الحساس ببراعة بحيث لايطفح وزن الدعاية على جوهر الاعلام فيفقد الناس ثقتهم في كل مايقدم اليهم سواء

كان حقيقة أو باطـلا • ويحـدث لديهم رد فعل نفسى وقائى يدفعهم بطريقة غريزية تلقائية الى مقاومة الـدعاية الطافحة برفض تصديق كل مايصـل الى أسماعهم وأعينهم عن الطريق الرسمى مع اصاغة لأذن بارهاف وتلهف الى كل مايتردد في صمت وخفاء ليعبر عن حقيقة متروية في الكواليس الخلفية لأنها نحيت قسوا من خشبة المسرح العلنى الغارق في أضواء الدعاية الباهرة •